ولكنه اذ يصل البصرة فهو هذا العجوز الذي لا يملك الا خمسة عشر دينارا ، ولا يجد غير الارتماء على التراب متنفسا لهمومه التي تطوقه ...

واسعد لا يستطيع مجابهة السلطة في الاردن ، ولكنه يصل البصرة بالتهريب فيشتد ضعفه في المجابهة ، وليس شبابه وماله وثقافته الا مظاهر خادعة لا تنم عن قـــوة حقيقية : فهو ساذج في ثقته بأبي العبد ، ساذج اكثر في حذره مع ابي الخيـــزران ، واموالة المستعارة يذهب قسم منها سدى مع ابي العبد ، لتتبدد كلها لاحقا مـــع ابـــي الخيزران دون ان تتيح وضعا افضل من غيره ، اما شبابه فليس للفعل كما يحكمه بذلك وضعه المأزقي في العراق ، ولاحقا في الخزان ... بينما يبدو مروان قاصرا في فهمه ، قاصرا في ماله ، قاصرا في عمره : فهو لا يتمكن من استيعاب وضع المهربين فـــي البصرة ، وهو لا يملك المال المطلوب من قبلهم ، فيظن ان بامكانه التهديد بالشرطة فيصفع ويشتم ويطرد دون ان يتمكن من مجابهة ذلك ...

وحين يمعن هؤلاء الثلاثة بالسفر ، فانهم يوضعون في خزان ماء سيارة مقفل بكـل ما يعنيه هذا الوضع من تسليم وعجز يهددان بالموت بوضوح .

وليس وضع ابي الخيزران الخصي ، الا الرمز الحاد الجارح لما يمكن ان يبلغه هذا العجز في حده الاقصى : البتر والموت .

هذا الموت هو الذ يصل اليه اولئك المسافرون الثلاثة المعنون انقطاعا عن ارضهم ، واذا كان ابو الخيزران يعيش ، فلانه ليس الا موتا يتحرك . حركته لا تسعى الا الـى موت (١١٤) ولا يمكن لها ان تلد الا العدم .

هكذا فان البنية الروائية في رمزيتها تؤكد ما سبقت الاشارة اليه في المطلع مـــن ان الانقطاع عن الارض (فلسطين) بالهرب (بالسفر) منها هو مخاطرة قاتلة . وليس موت هؤلاء الثلاثة على الشكل الذي قضوا فيه الا التجسيد الحي لذلك . فهم يموتون اختناقا داخل الخزان المقفل الذي يمثل ابتعادهم عن الارض ونبضها ، وحرمانهم ايضا من رائحتها، اي يمثل اليباس الضاري النقيض الكامل للارض الندية على كل المستويات . فبقدر ما كان رتاج الخزان المقفل يمثل الحد الاقصى للانقطاع عن الارض ، وبقدر ما كان موقعهم (ما بين العراق والكويت) يمثل الحد الاقصى للامعان في السفر (الهرب ــ الانقطاع ..) ، وبقدر ما كان الوقت الذي يمر (التاريخ ..) لا يرحم ويمثل الحد الاقصى لاحتمالهم (احتمال الوجود ..) فانهم كانوا يعيشون ذروة الموت .

وفي هذه البنية بالذات ، البنية الرمزية لرواية واقعية ، يعلن غسان كنفاني موقفـه على انه ادانة كاملة للابتعاد عن الارض (فلسطين) . فهذا الابتعاد هو اغراق الواقع السائد ومفاهيمه ، واستغراق في الموت انجح ام فشل ، سيان . فالاندراج في البعد هـو اندراج في الكذب والخداع ، كما هو سائد في العلاقات الاجتماعية القائمة في الانظمـة العربية ، وليس هذا الاندراج الا انخراط في مؤسساتها بما يعنيه من تذويب للشخصيـة الفلسطينية التي تنتهي وتموت . وهذا ما يعرفه اولئك الذين ينجحون في هذا الانقطاع عن فلسطين ، فيبقون حيث هم ويقطعون كل صلة لهم بالوطن كحال ابي الخيزران الـذي